على عتبات مدرسة الإمام الخطابي (١ / ٢)

٢٣/ ٥/ ١٤٣٨هـ

حين يقدّر لك أن تقرأ لإمامٍ واسع الاطلاع، حسَنِ التصنيف، رشيقِ العبـــارة؛ فهذا يعني أنـــك تعيش في جنةٍ من جِنـــان الدنيا، وروضةٍ من رياض الأُنْس، وهذا ما أجده مع بعض الأعلام، والأئمة الكبار، ومنهم الإمام الخطابي -حَمْدُ بن سليمان- (٣٨٨هـ).

ومن تصانيفه الدالة على تبحّره كتابه (غريب الحديث) والذي يهمّني في هذه الأســطر مقدّمته التي لم تخلُ من عبارات مشرقة، ونصائح غير مباشرة لطالب العلم، أحببتُ أن تشاركوني -معشر القراء الكرام- جمالها وفائدتها.

- **الخطابي والدراسات السابقة:**

حـــين أراد اســـتعراض ما يُســـمى اليـــوم في الحقـــل الأكاديمي الـ (دراســـات السابقة) أَثنى ثناءً عاطرًا على مَن سبَقه، وأنصفهم، فقال عن كتاب أبي عبيد القاســـم بن سَلّام: «فإنه قد انتظم بتصنيفه عامةَ ما يُحتاج إلى تفسيره من مشاهير غريب الحديث، فصار كتابُه إمامًا لأهل الحديث، به يتذاكرون، وإليه يتحاكمون.

ثـــم انتهج نهجَه ابنُ قتيبة أبو محمد عبدالله بن مســـلم؛ فتتبّع ما أغفله أبوعبيد من ذلك، وألّف فيه كتابًا لم يَألُ أن يبلغ به شـــأوَ المبرِّز الســـابق، وبقيتْ بعدهما صُبابة، توليتُ جمعَها وتفسيرها مستعينًا بالله، ومسترسلًا إلى ذلك بحسن هدايتهما، وفضل إرشادهما».

بعـــض المصنّفين ومحققي الكتب من أهل عصرنا، يظن أنه لا يمكن لكتابه أن يروج إلا أن يَغمط حقَّ مَن ســـبقه سواء المجيد أو المسيء؛ ليثبت -بزعمه- أن كتابَه أو تحقيقَه هو الأم في بابه، وكأنه يقول بلسان الحال أو المقال:

لا تَذكر الكُتْبَ الســـوالفَ عنـده

طلعَ الصبـــاحُ فأطفئَ القنـديـلا!

وقد رأيت نـــماذج من مقدمات هؤلاء يَعجـــب منها الباحث، فترى بعضَ المحققين ينتقد أشياء على مَن سبقه، ثم يقع في مثلها أو أشد! ومن ذلك: أن أحدَهم عابَ النســـخةَ التي قبْله بكثرة التصحيفات، فوجدته وقع في ذات ما ذمّ به مَن قبله!

تأمل الفرقَ بين طريقة الخطابي في الثناء على من ســـبقه، واســـتفادته منهم، وبين طريقة مَن ذكرت.

- **العلم من المحبرة إلى المقبرة:**

قـــال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مضى عليَّ زمانٌ، وأنا أحســـب أنه لم يبقَ في هذا الباب لأحدٍ متكلَّم، وأن الأول لم يَترك للآخر شـــيئًا...، ثـــم إنه لما كثُر نظري في الحديث، وطالت مجالســـتي أهلَه، ووجدتُ فيما يمر بي، ويَرِد عليّ منه ألفاظًا غريبة لا أصل لهـــا في الكتابين؛ علمتُ أنّ خلاف ما كنت أذهب

إليــه من ذلك مذهبًا، وأن وراءه مطلبًــا، فصرفت إلى جمعها عنايتي، ولم أزل أتتبع مظانّهــا، وألتقط آحادَها، وأضم نشرهــا، وأُلفّق بينها؛ حتى اجتمع منها ما أحب الله أن يوفِّق له، واتســق الكتاب، فصار كنحوٍ مِن كتاب أبي عبيد أو كتاب صاحبه».

هكذا طالــب العلم والعالم؛ لا يفتــأ من النظر والبحــث، والمطالعة والمراجعة، ومتى ظنّ أنه اكتفى فقد نادى على نفسه بالقصور، وقد سمعتُ ورأيت من شــيخنا الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ذلك العَجَب، فلا يستنكف أبدًا من قول: «لا أعلم»، و: «تحتاج إلى مراجعة»، وســمعتُه وقد نيّف على الثمانين يوصي بالتحضير ومراجعة المسائل قبل إلقاء الدروس، ويُخبر عن نفسه أنه يفعل ذلك، وقد قال إمامُه من قبل: مع المحبرة إلى المقبرة[1].

- **مقاصد التصنيف:**

ختــم مقدِّمتَه معلِّلًا غرضَه من تصنيفه لهذا الكتاب، فقال: «الغرض فيــه: أن يظهر الحــق، وأن يبين الصــواب، دون أن يكــون القصد به الاعتراض على ماضٍ أو الاعتداد على باقٍ».

لله هذه النفوس! مــا أرقى مقاصدَها، وأســمى غاياتها، ولعل هذا الصفاء في النية، والصدق في الغاية من أســباب هذا القبول الذي نشره الله لمصنفات هذا الإمام، فليســت الغايةُ من التصنيف تسويد الأوراق، ولا الغضّ من جهودٍ سبقته ليجعلها سُلمًا لظهوره، وإنما «ليظهر الحق»، فهنيئًا لمن جعل هذه الغاية أمام عينيه حين يجرّد قلمَه مِن غِمْده ليكتب ما يكتب. وللحديث صلة إن شاء الله.

(١) مناقب الإمام أحمد. لابن الجوزي (ص٣٧).